بنو جذيمة

وقد أثنى النبي على خالد في مهمة لم يندبه لها ولم يرشحه لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأي المسلمين فيها...

ولكنه لامه وبرئ من عمله حين أخطأ في مهمة ندبه لها بعد فتح مكة وهى السرية التي قادها إلى بني جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم إلى الإسلام..

فبعد فتح مكَّة توجهت عنايته عليه السلام إلى تطهير البوادي المحيطة بها من عبادة الأصنام، فأرسل السرايا إلى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها، ومنها سرية خالد إلى بني جذيمةَ في نحو ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبني سليم. أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بالقتل.

وكان بنو جذيمة "شرّ حيٍّ في الجاهلية يسمون لَعَقَة الدم، ومن قتلاهم الفاكه ابن المغيرة وأخوه عمًّا خالد بن الوليد، ووالد عبد الرحمن ابن عوف، ومالك بن الشريد وإخوته الثلاثة من بني سليم في موطن واحدٍ" وغير هؤلاء من قبائل شتَّى..

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بني سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول. فسألهم: أمسلمون أنتم؟ فقيل أن بعضهم أجابه نعم! وبعضهم أجابه: صبأنا! صبأنا! أي تركنا عبادة الأصنام، ثمَّ سألهم: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح! فناداهم: ضعوا

السلاح فإن الناس قد أسلموا. فصاح بهم رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة! إنَّه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسار وما بعد الأسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدًا. فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون. فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف، فأطاعه في قتلهم بنو سليم ومن معه من الأعراب، وأنكر عليه الأنصار والمهاجرون أن يقتل أحدا غير مأمور من النبيِّ عليه السلام بالقتل. ثم انتهى الخبر إلى النبيِّ فرفع يديه إلى السماء وقال ثلاثًا: "اللهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد" وبعث بعليِّ بن أبى طالب إلى بني جذيمة فودي دماءهم وما أصيب من أموالهم.. قيل أنه " كان يدي حتى ميلغة الكلب" ويسألهم: أبقى دم أو مال لم يودَ إليكم؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال "احتياطًا لرسول الله".

وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت إليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه: هل أنكر عليه أحد قال: نعم. قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر، فاشتدَّت مراجعتهما. وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال: أمَّا الأوَّل يا رسول الله فابني عبدالله. وأمَّا الآخر فسالم مولى بني حذيفة.

ويعزى إلى خالد أنَّه استند في قتالهم إلى قول عبدالله بن حذافة: "إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام".

وقد عم النكير على خالدٍ بين أجلَّاء الصحابة، من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدا

بقتل القوم عمدا ليدرك ثأر عمَّيه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجل من بني أمية. وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارا إلى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بني جذيمة قضى نحبه هناك يحملونه إلى ورثته وأهله. فاعترضهم جذميٌّ في رهطٍ من قبيلته يدعى خالد بن هشام وزعم أنَّه وارث المال وأحقُّ به من غيره. فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال إلى أهل الميِّت، فغضب وقاتلهم بالرهط الذي معه فقتل عوفًا والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبدالرحمن إلى خالدٍ بن هشام هذا فقتله بثأر أبيه. وهمَّت قريش بغزو بني جذيمة لولا أن مشى بعض العقلاءِ بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال.

ومن الإسراف أن نظنَّ بخالدٍ بن الوليد أنه تعمد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبيِّ ذريعةً إلى شفاء ترةٍ قديمة، فأدنى من ذلك إلى القصد في فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعي اللبس ودوافع الطبع التي تدفع خالدا خاصةً إلى مثل هذا التصرُّف، فان كانت هذه الدواعي وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهي تفسير لما حدث وفيها الكفاية، وإن لم تكن قائمةً ولا مفهومةً فهنالك ينفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء..

وقد كانت دواعي اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة في مقلتة بني جذيمة فإنَّ البواديَ كلَّها حول مكَّة كانت تزخر بالشرِّ وتتحفَّز للوقيعة في تلك الآونة بعد تسليم مكَّة. فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها مجتمعةً في العدَّة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبيِّ وجمعه، فإذا ارتاب خالد في نيات

طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله فارتيابه وجه لا يخفى، وإذا أضيف الى ذلك تلجج القوم في إعلان إسلامهم والإفضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازبٍ عن بال المتوجس في إشباع ذلك المقام.

وقد يغنِي الشعر والقصص في الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيهِ التاريخ وتسلسل الرواية، فمن كلام أحد الوهبيين في خطاب بني جذيمة بن عامل يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الإسلام والمسالمة، وذلك إذ يقول:

دعونا إلى الإسلام والحق عامرا فما ذنبنا في عامر إِذْ تولَّتِ

وما ذنبنا في عامر لا أبًا لهم لئن سفهت أحلامهم ثمَّ ضلَّتِ[1]

وقال أحد الجذميين:

فلا قومنا ينهون عنَّا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهِبُ

وفى قصة رواها محمد بن إسحاق بن يسار – وهو من الثقات – شواهد على إصرار بني جذيمة وعنادهم إلى ما بعد الإسار والإنذار، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغاني حيث نقلت ببعض التصرف: "أن خالد بن الوليد كان جالسًا عند النبي صلى الله عليه وسلم فسئل عن غزوته بني جذيمة فقال: إن أذن الرسول الله صلى الله عليه وسلم تحدَّثت. فقال: تحدث. فقال: لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح. فقاتلناهم. حتى كاد وجه الشمس يغيبُ، فمنحنا الله

(١) البيتان من الطويل.

أكتافهم فتبعناهم نطلبهم، بغلامٍ له ذوائب على فرس ذنوب في أخريات القوم، فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه، فقال: لا إله. فقبضت عنه الرمح. فقال: إلا اللَّات أحسنت أو أساءت. فهمسته همسةً أذريته وقيذًا – أي مشرفا على الموت – ثمَّ أخذته أسيرًا فشددته وثاقًا، ثمَّ كلَّمته فلم يكلمني واستخبرته فلم يخبرني فلمَّا كان ببعض الطريق رأى نسوةً من بني جذيمةَ يسوق بهنَّ المسلمون، فقال: أيا خالد قلت: ما تشاءُ؟ قال: هل أنت واقفي على هؤلاء النسوة... فأتيت على أصحابي ففعلت وفيهنَّ جارية تدعى حبشية، فقال لها: ناوليني يدَكِ، فناولته يدَها في ثوبها. فقال: اسلمي حبيش قبل نفادِ العيش، فقالت: وأنت حييت عشرًا أو تسعا وترًا وثمانيًا تترى".

قال: " وتناشد الأشعار حتى قتل وأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها وجعلت ترشفه وتبكي.... " إلى آخر القصَّة في الجزء السابع من الأغاني وهى على ظهور الاختراع في بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بني جذيمة من سريَّة خالدٍ.

فإذا صحَّ مع هذا أنَّ خالدًا تلقَّى من عبدالله بن حذافة السهميِّ أمرًا بقتال بني جذيمةَ نقلًا عن النبيِّ عليه السلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة إسلامه وقلَّةِ علمه بفقه الدِّين وأحكامه، وهى على أية حال رواية لا تغفل كل الإغفالِ في صدد البحث عن أخبار هذه السرية.

والجوّ كلُّه بعد هذا أو ذاك –سواء في البادية أو في مكَّة– هو جوُّ الخرابِ والريبة وجو التربص والنفور، فلا عجَبَ أن تختلفَ فيه النوازع

والآراءُ وأن تُستطَارَ فيه دواعي الشرِّ والنقمة، وأن يتطرَّق إليه اللبس وتتعذَّر فيه استبانةُ الوجه الصراح.

وعند خالد دوافع الطبع إلى جانب دواعي اللبس واختلاط الآراء، وهى الدوافع التي قد نعد منها حداثة السن في ذلك الحين، ومنها أنه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال في الصحراء، ويحدث للقائد في هذا الموقف كثيرًا أن يفرق بين ضربين من التسليم: هما تسليم المراوغة والختل وتسليم الإذعان والنصيحة ولاسيِّما تسليم العدو المتهم المتردد الذي يحيد عن الصراحة ويفنِّد أناس منه مقال أناس آخرِينَ.

ومن دوافع الطَّبع عند خالد تلك الصرامة التي ينشأ عليها كل من نشأ في مثل بيئته الجاهلية، وتلك الشدَّة التي تثيره إليها أعصابه ويومئ إليها تفزعه في نومه ومشاركة إخوته في عوارضها الموروثة على نحو من الأنحاء، وهى ولا رَيبَ تلك الشدَّة التي عناها عمر بن الخطاب حين قال: "إن في سيف خالدٍ لرهقًا" وهو من أعرف الناس به وأقربهم إليه، وهى التي توقعها جحدم أخو بنى جذيمة حين صاح بقومه محذرًا إياهم من إلقاء السلاح: ويلكم يا بني جذيمة إنَّه خالد!... كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج إلى تأويل بعيد..

وندرت في تاريخ الحروب القديمة والحديثة حربٌ تدور على العقيدة الدينية أو الحميَّة الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغي أن يقع بشير السلام.

ولا يبعد أن يكون خالدٌ قد ورث من عمومته جفوة لبنى جذيمة فجنح به شعوره إلى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة إليهم من حيث لا يقصد التِّرةِ ولا يتعمَّد الانتقام.

فكلُّ هذا أقرب إلى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبيِّ على دَخَل[1] وسوء نيَّة وهو الرجل الذي حارب أصدقاء هو أقرب الناس إليهم على أبواب مكة، وله ندحة عن حربهم لو تعمد اجتنابها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع إلى صدق النية في إطاعة النبيِّ عليه السلام.

ومهما يلوم اللائمون أو يعذر العاذرون في هذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأنَّ الإبقاء على خالدٍ بعدها صواب. لأن صواب الإبقاء على خدمته بعد غزوة بني جذيمة قد ظهر أيَّما ظهور في حروب الردة وحروب الفرس والروم..

وذلك مثل من تربية النبيِّ عليه السلام لأفذاذِ الرجال..

ويتجلَّى تمام هذا المثل بإعطاءِ الرجالِ فرصَ المراجعة والإصلاح في أمر يشبه الأمرَ الذي أخطأوا فيه، وموقف غريب من الموقف الذي عرضهم للملامة وهذا الذي توخَّاه عليه السلام حين أرسل خالدًا دون غيره إلى بني المصطلق – وهم من بني جذيمة – ليستخبر له خبرهم ويتبين الحقَّ فيما بلغه عن ارتدادهم، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام، فندب عليه السلام خالدًا وأمره أن يتثبَّت ولا

(١) حقد دفين.

يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونَه فلمَّا جاءوه وأخبروه بأنهم متمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأخبره.

وهو مثل ينبئُ عن كثير، وقد ينبئُ عنه أنَّ خالدًا لم يتعسف كل التعسف في شكه الأول ببني جذيمَةَ على اختلاف بيوتهم، لأن الشطَّ فيهم مازال يتكرَّر بعد ذلك بشهور، وما زال يدعوا إلى تلقِّي الإشاعة عنهم وإيفاد الوفود إليهم مرَّتين للتمحيص والاستخبار..

obeikandl.com